ايتها العزيزة:-
انت تصعدين الآن، فيما نحن بدأنا نهبط، لقد اوشك دورنا ان يتم... كان دور هذا الجيل اقصر دور لاي جيل مر في التاريخ، اننا نعيش لحظات حاسمة في تاريخ البشر، وهنالك الناس ينقسمون، معترك ومتفرج، اما المتفرج فلسوف يعيش جيله كله، ويمتصه حتى آخره، اما المعترك، فسرعان ما سوف يسقط، فالمعركة قاسية، وقدرته الانسانية لن تحتمل كثيرا، ولقد اخترت انا، ايتها الصغيرة، الا اكون متفرجا، وهذا يعني انني اخترت ان اعيش اللحظات الحاسمة من تاريخنا ومهما كانت قصيرة... وفي اللحظة التي سيتم فيها الاستقرار سوف لن نكون نحن ذوي نفع على الاطلاق، ولسوف يتولى القيادة جيل جديد، اما نحن، فلسوف نتنحى جانبا، هؤلاء "الاخرين"، يا صغيرتي، هم انتم... لسوف ندفع لكم من قلقنا ثمن اطمئنانكم، ولسوف تستقرون على حساب ثورتنا... ان مشيئة التاريخ ان نكون نحن، ونحن فقط جيل الانقلاب...."(١١)

اذن لم تكن نظرة غسان الى الطفولة نظرة سطحية، بقدر ما كانت نفاذة وصلت الى عمق العمق، لهذا فان اهتمامه بعالم الطفولة يعني وضع المقدمات الصحيحة لقادة المستقبل وبناته، فاذا كانت المقدمات صحيحة، بالضروري ان تكون النتائج صحيحة، وعليه فان اي مجتمع يهمل تربية اطفاله ولا يمنهجها، ولا يخلق لهم

المناخ المناسب لكي يعيشوا طفولتهم، فعليه ان ينتظر مستقبلا ملفعا بالضبابية والغموض واللا استقرار.

حقا لقد اعطى كنفاني الاطفال، لانهم بدورهم قد اعطوه ونبهوه الى نبع المعاناة، الى الجذر. الى العمق، فاحتكاك غسان بالاطفال عندما كان معلما في احدى مدارس وكالة الغوث في سوريا، شكل نقلة نوعية في حياته، نقلته من دائرة التأملات الى دائرة التفاعل العلمي والعملي مع جوهر الطفولة الفلسطينية التي صاغتها وشكلتها عوامل التشرد والفقر والاهمال.

"ذات يوم كان يحاول ان يعلم الاطفال ان يرسموا تفاحة وموزة، فقد كان عليه ان يتقيد بالمنهج المقرر - وعن هذا الموقف يقول:- عندما كنت احاول ان ارسم الرسمين على اللوح باكمل وجه ممكن، انتابني شعور بالغربة وعدم الانتماء..... واذكر جيدا بانني شعرت في تلك اللحظة بان علي ان اقوم بعمل ما، اذ انني ادركت بوضوح قبل ان استطلع وجوه الاطفال الجالسين ورائي، بان لم يسبق لهم ان شاهدوا تفاحة او موزة، وبالتالي كانت هذه الاشياء اخر ما يثير اهتمامهم.... ونتيجة لذلك محوت الرسوم على اللوح وطلبت من الاطفال ان يرسموا المخيم".